الفصل الحادى عشر

القاهرة.. الطابع الإسلامى

العمارة الإسلامية التى ابتدعتها القاهرة لا تجعلها فحسب مجرد مدينة جليلة المكانة فى هذا الفن، بل تجعلها مدينة فريدة ليس لها مثيل. وقد رأيت أن أنسب هذه العمارة إلى الإسلام، لأن نسبتها إلى السراقنة - كما فعل القرن التاسع عشر دائمًا - منافية للدقة والصواب، ولأنه كما يقول أئمة المتخصصين اليوم، لا يجوز إطلاقًا نسبتها إلى العرب، وها هو ذا الأستاذ كرسويل يستخدم عبارة الفن المسلم، وقد يغتفر لى أن ألجأ إلى الصفة المشتقة من كلمة «الإسلام» لأنها الاسم الذى يطلق على

هذا الدين وحضارته، فهى أفضل عندى من كلمة «المسلم» التى هى صفة من يعتنق الإسلام، فمن محامد النسبة التى استخدمها أنها تنطبق على أبنية أنشأها معماريون مسيحيون.

وحتى القول بان هناك مدنًا أخرى تزهو كل منها بمثال للعمارة الإسلامية أو فى صدقًا وكمالا هو قول موضع نظر. حقًا إن كل من زار بورصة (فى الأناضول) ورأى عمائرها لا يسعه الإعجاب بألوانها الزاهية، وإن عشاق نقاء الشكل فى الفن المعمارى يهللون لقصر الصيد المسمى بالأخيضر (فى لواء كربلاء) أو لبقايا قصور سامرا (سر من رأى) التى بنيت فى القرن التاسع، وإن ضريح تاج محل الذى تنعكس واجهته على الماء له من المعجبين به قدر ما له من الهائمين بالتقاط صورته، ولكنها جميعًا إما أبنية فرادى، وإما - كما هو الحال فى بورصة - أبنية من نتاج عصر واحد. أما القاهرة فهى وحدها التى تشهد بتطور متصل قرنًا بعد قرن، يتدرج من السذاجة عبر البساطة إلى تعقيد التركيب، ومن الإزدهار العفى إلى الذبول السقيم. وهكذا فإن سجل

حضارة بتمامها يتكشف على الحجر والآجر والخشب طوال زمن يزيد عن ثلاثة عشر قرناً هو الآن معروض للناظرين. وقد كانت بغداد خليقة بأن تنافس القاهرة، ولكن بغداد خربها المغول بعد سنوات قليلة من بناء قصر المستنصرية المشهور بانسجامه اللطيف. لذلك إذا أردنا أن نتذوق الفن الإسلامى بغير أن تفسده رتابة التفاصيل كما فى قصر الحمراء، وبغير أن يشوهه تعمل مبالغ فيه - كما فى عمارة الهند - فينبغى لنا، كما يقول ستانلى لين بول - أنْ نتأمل مساجد القاهرة وأضرحتها.

وإذا كانت القاهرة بهذا النمو العشوائى لأحيائها السكنية تبدو مختلطة المسالك، فإن ميزتها أنك إذا تأملتها بصبر وجدتها لاتكشف لك عن اختلاطها الذاتى فحسب. بل تكشف أيضًا عن اختلاط جانب دخيل وجانب أصيل لحضارة تتمركز فى القاهرة، وهى إذ تكشف تفسر.

إن مشوارًا طويلاً فى يوم واحد (وإن كان من الأفضل تجزئته على أيام عديدة) هو بمثابة درس لك، فتفهم منه هذه الحضارة المنسوبة إلى الجنوب الشرقى لحوض البحر الأبيض المتوسط، كما تفهم تطورها.

وينبغى أن يبدأ المشوار من الطرف الجنوبى للقاهرة بنت اليوم. وأفضل وسائل القيام به هو ركوب قطار ضواحى من محطة باب اللوق (وثمن التذكرة فى الدرجة الأولى ثلاثة قروش، أى مايعادل ستة بنسات) ثم تنزل فى المحطة الثالثة.. محطة مار جرجس، فتشرف على مدخل ضيق لكنائس لاتخلو من دمامة. أحن رأسك تحية لها والحظ جدارين مستديرين بقيا من حصون القاهرة الرومانية، واجعل عزمك زيارة هذه القاهرة فى غد، ثم امض فى طريقك واسلك دربًا معتمًا متربًا يحاذى السور الذى يضم الكنائس، فإذا بك تصل إلى أقدم مسجد فى القاهرة.

وقد تم فتح مصر سنتى ٦٤٠-٦٤١م وفاتحها هو عمرو بن العاص، وكان فى شبابه من أصحاب الرسول الذى توفى سنة ٦٣٢. وقد جاء عمرو من الأراضى العربية حيث - ونحن ننقل مرة أخرى كلام الأستاذ كرسويل - «لم يكن لأهلها العرب قبل الإسلام - فيما يبدو - إلا فكرة بدائية عن فن العمارة، فلم يكن معبدهم قبل سنة ٦٠٨ يزيد عن أربعة جدران فى قامة

الرجل تدور حول بئر زمزم، وبعبارة أخرى كانت الأراضى العربية تمثل فراغًا معماريًّا تامًّا أو يكاد». وعمرو الذى شرب من ماء زمزم كان قائدًا عبقريًّا، سلس الإيمان بدين سلس، فكان فى حاجة إلى جامع يؤدى فيه صلاته. لاشك أنه رأى هذه الكنائس التى مررنا بها لتونا على الصورة التى كانت لها فى الأصل، إنها تختلف عن الكنائس الواقعة إلى الشرق من مصر فى سوريا وفلسطين فهى بادية التقشف مكنونة، تعكس موقف الكنيسة القبطية من العقيدة بميلها إلى الاقتصار فى غموض على الذات.. وقد خصصت سوريا وفلسطين بالذكر لأن المسلمين ظلوا زمنًا طويلاً يشاركون فى كنائسها، يصلون فى جانب، ويصلى المسيحيون فى الجانب الآخر.

واليوم فى الموقع الذى تدبر فيه عمرو كيف يفى بحاجته، لانرى إلا سورًا عظيمًا من الآجر المغطى بالجص، كأنه مهجور، له ثلاثة أبواب، فإذا دخلنا وقع بصرنا على مساحة مكشوفة أرضها من الرمل، هذا البهو فى الوسط يسمى بالصحن، إنه مصطلح فنى يحسن بنا أن

نتذكره، وإلى أمام المدخل من بعيد نرى القبلة ومن حولها الأروقة، وهى غابة من الأعمدة غير المتشابهة تتفتح عن الصحن من خلال عقود تبلغ العشرين.

وهذا الجامع الفسيح العادى البسيط، كان فى الأصل معدًّا فى المحل الأول لأغراض عسكرية، ليتاح لرجال الجيش المؤمنين أن يجتمعوا داخل سور ليقيموا صلاتهم فى أمن. لم يبق منه اليوم إلا أشباح تتراءى فى الجامع الذى نزوره، فلا يكاد يكون قد بقى منه قالب واحد من الآجر أو عمود مستعار من بناء آخر، لأن جامع عمرو كان يوم إنشائه ضئيلا بالقياس إليه اليوم، ضئيلا ليناسب مدينة الخيام (الفسطاط) التى استحدثها عمرو خارج بابليون المسيحية. هو اليوم مساحة ضخمة على هيئة مربع، يبلغ طول ضلعه ١٠٠ ياردة، أما زمن عمرو فكانت له أربعة أضلاع غير متساوية (٢٩ فى ١٧ ياردة) وكانت أرضه مكشوفة مغطاة بالجص، وعلى قوائم من جذوع النخل سعف من الجريد المغطى بالطين، كما كان حال بيت الرسول فى المدينة، أما الجدران فكانت من اللبنات. وبعد ثلاثين سنة تجدد بناؤه. ثم أهمل وتهدم ثم تجدد مرة أخرى

إلى زمن محمد على. وهو اليوم أفضل بداية لجولة فى القاهرة الإسلامية.

فإذا خرجنا وتلفتنا نبحث عن سيارة أجرة (وعسير العثور عليها فى هذا الحى الفقير) ورضينا بالسير على الأقدام، وجدنا أنفسنا نطأ أرض أول موقع للقاهرة الإسلامية. كانت مدينة من الخيام نصبها البدو.. حقًا إنه ليناسبها اليوم ما نراه من منظر أكوام النفايات وصفوف القبور ودكاكين رثة صغيرة تبيع أوان فخارية بدائية.

وكانت حركة العمران فى القاهرة الإسلامية تتجه دائماً إلى الشمال.

وبعد ٢٠٠ سنة من تأسيس عمرو بن العاص لمدينة الفسطاط وإلى الشمال منها مسافة ميل واحد، انشئت المدينة الإسلامية التالية على يد وال للخليفة العباسى. فقد جاء ابن طولون من سامرا (سر من رأى) التى شيدها الخليفة المعتصم، وقد أعياه تتابع الصدام فى بغداد بين رعيته من العرب وجنوده المرتزقة من الأتراك، مدينة لم يسبقها فى الضخامة والطموح إلا مدينة روما العتيقة،

فقد كانت فسيحة الطرقات، تتقاطع متعامدة، ولا يزال تخطيطها الهندسى بيناً عند تصويره من الجو، ما أشبهها حينئذ بمدينة برازيليا اليوم. ولأن ابن طولون، وهو نفسه من الاتراك – قد جاء من هذه المدينة الكبيرة، فقد بدت الفسطاط للعين مدينة صغيرة محشورة، وكذلك وجد اشباعه جامع عمرو – رغم أنه كان قد زيدت مساحته – أصغر من أن يفى بحاجتهم لأداء صلاة الجمعة. أين هو من جامع سامرا الذى كان يتسع لستين ألفا يصلون جماعة معاً.

وهكذا مضى ابن طولون سنة ٨٧٠ فى اقامة مدينة جديدة يكون فيها قصر له وميدان صوالجه (اللعب بالكرة من على ظهور الخيل، أى لعبة البولو الحديثة). خلة واحدة تؤلف بين العرب والأتراك وهى عشق الخيل، ولكن الذى كان يؤلف قبل كل شىء بين ابن طولون ورعيته من المصريين هو الدين الإسلامى الذى يطرح الفوارق القومية التى يتعصب لها العصر الحديث وتلح عليه إلحاحًا شديدًا. وكان ابن طولون متديناً، تقيًّا، ورعاً.

وها نحن نذهب اليوم لزيارة جامعه.

حقا إن وصوله إلينا سليمًا يعد من الخوارق، هذا المربع المهيب خليق بأن تكون روعتنا له مماثلة لروعتنا لمعبد البارثينون. بل هو عندى يوحى بفيض أكبر من القداسة، إنه أميل فى الشبه إلى معبد فرعونى منه إلى معبد إغريقى، فهو يخفى جماله من وراء أسوار لابد لمن يؤمه من المؤمنين من اجتيازها. وهو مقام على تل صغير ليكون بمنجاة من ماء الفيضان، ولكنه لا يطاول الأكروبول فى الارتفاع، فأنت تصل إلى مدخله عبر طرقات زاخرة بالضجة والزحام - وقد نظمتها البلدية على نحو يكاد يكون دمياً. فإذا جاوزنا المدخل الفينا أنفسنا وقد شملنا جو يوحى بالسكينة والبساطة وتجانس العناصر، وينكشف الصحن للسماء فتحرقه الشمس وتجلله بالصفار. وفى وسط الصحن فسقية للوضوء تعلوها قبة ترجع إلى سنة ١٢٩٦، وهى أقل قيمة من القبة الأصلية التى كانت مقامة على عشرة أعمدة من المرمر، طلباً للجمال وحده لا للنفع، فنحن نعلم أن ماء الوضوء لجموع المصلين كان مبذولاً ميسرًا من وراء الجدار الغربى

للجامع الأصلى. إذا كان الصحن هو بمثابة الصحراء فالفسقية هى الواحة والعقود هى الغابة التى ترمز لما فى النفس من تشابك المنازع المتضاربة، فيطالعها فى ظلال الأروقة جو رطيب يشعشع فيه الجذل الروحى ويخيم فيه السكينة الداعية إلى الاستغراق فى التأمل والاستعبار، فالمسلمون الذين أخضعوا صحارى الشرق الأوسط لم يألفوا الغابات إلا قليلا، ورأوا غابات النخيل على شاطئ دجلة وغابات شجر الأرز فى جبل لبنان، إلف نادر وقصير الأمد، فهو يتوهج فى الذاكرة كما يتوهج القرآن الذى نزل فى مكة قنينة الرمال كلما تحدث عن الحدائق والجنان، فالسماء والصحراء والماء والغابة، هذه الأشياء الأربعة إنما توحى بشىء خامس ينطوى فى وجوده وجود كل الأشياء: الله. فأنت فى هذا المبنى لا تستشعر الله فى رؤيتك لتمثال - فليس فى الجامع طبعًا تماثيل - أو لتفاصيل من زخارف، ولو أن الزخارف الجصية حول الشبابيك بديعة الجمال، بل تستشعره فى هذا الانسجام الكامل المطلق حيث لا عوائق بارزة وحيث تجد كل حنية من حنايا الروح رمزها..

وفى المساحة التى أضيفت للجامع وفى حضن أسواره العالية تقوم مئذنة من الحجر الرملى، كأنها مسخ لطراز معمارى قديم، فنصفها مربع ونصفها اسطوانى. وقد تعددت واختلفت الآراء فى تعيين هذا الشكل العجيب، فهناك رأى يقول إن ابن طولون كان رجلاً منصرفًا إلى عمل نافع أو متحفزًا له، يكره البطالة والمتبطلين وكان جالسًا ذات يوم يتحدث عن جامعه وكيف يريده أن يكون من طراز جديد غير مسبوق وأن تتمثل الجدة فى استغنائه عن الأعمدة لأنها تنتهب عادة من الكنائس، فرآه جلساؤه يلهو بورقة فى يده، ويلفها فى غير مطلب، فلما أحس أنهم ضبطوه وهو يعبث أراد أن يبرهن لهم أنه كان منصرفًا إلى عمل نافع يتدبره، وقال لهم من فوره «اعملوا لى مئذنة على هيئة هذا المخروط الذى فى يدى».

ولكن التعليل الأقرب للعقل هو أن تذكر البرج المخروطى الهائل فى جامع سامرا، وهو نفسه أحد المناظر العراقية حيث كان لا يزال برج زيجوارت فى بابل قائمًا

فى زمن ابن طولون وحيث لا تزال قمة أغا جدف ترتفع ١٧٠ قدمًا إلى الآن فى أفق بغداد. ولكن إن كانت عقود الجامع وهى من الطوب الأحمر المغطى بالملاط والجص، وكذلك زخارفه فى الأزوقة وحول الشبابيك باقية كما كانت فإن المئذنة التى نراها اليوم ليست هى التى كانت قائمة فى البداية، فمن المستيقن أو يكاد أنها بنيت من جديد على يد السلطان لاجين فى عهد المماليك. والمئذنة فى شكلها التى اتخذته فى عصر أصبحت فيه المآذن تزهو برشاقة تغلو أحيانًا فتبلغ حد التخنث، تمثل محاولة متعثرة للعودة بالمئذنة إلى أصلها الذى عرف كيف يقتبس فى غير اختلاط أو اضطراب هذه الخطوط المنسابة التى ميزت المخروط الهائل فى مسجد سامرا. ولم تكن المئذنة منذ إنشائها زمن ابن طولون تبدو عجيبة شاذة، إذ كانت المآذن - هذا الشكل المعمارى المستقل - تستفتح أول عهود تطورها على مراحل امتدت قرونًا عديدة. وكانت أوائل المآذن أبراجًا مربعة حول الكنيسة الكبرى فى دمشق التى أصبحت فيما بعد مسجدًا. وكلمة مئذنة فى الأصل تعنى «مكان يسترعى فيه الانتباه» وكان يمكن أن

تطلق على فنار كمنارة الإسكندرية.

والمدينة الإسلامية الثالثة - تلك التى اتخذت لأول مرة اسم القاهرة وخلعته على العاصمة كلها تقع إلى الشمال من جامع ابن طولون وتبعد عنه مسافة ميل، وكان إنشاؤها بعد قرن كامل من الفراغ من بنائه. لن يسعفك قطار أو ترام لزيارتها، ومن الأصوب أن تعدل عن ركوب التاكسى وتعتمد على قدميك، هذا بفرض أنك زرت جامع عمرو مع الفجر وجامع ابن طولون وقت الفطور تقريبًا.

لهذه المدينة الثالثة بوابة جنوبية - متينة عفية - من طراز بيزنطى. جناحاها المحصنان ترتفع فوقهما - كأنما تتهلل لنا - مآذن رشيقة أقيمت فى عهد لاحق. كانت تتهلل فى الماضى للمجرمين، هى حقا جسر التنهدات وبعد أن كانت تتدلى منها حبال المشانق أصبحت مأوى خفيًّا لسيدى المتولى، إنه قديس يطير فى الهواء من مكة إلى القاهرة بالسهولة ذاتها التى يطير بها بطل من ألف ليلة وليلة، إليه تكتب العرائض والشكاوى ويزج

بأوراقها ما بين المسامير وخشب الباب، أما استجلاب شفقته فيكون بلف مزق من قماش حول المسامير.

هذا هو باب زويلة ولكنه عند المتعلقين بالولى يسمى «باب المتولى». وهناك طريقان سهلان يؤديان إليه كلاهما ممتع لك. فإذا كنت تمشى مرخى القياد، غير متريث لتتأمل أثرًا معماريًّا تقصده لذاته، إنما تتشرب بنظرة شاملة هذا السحر الذى تنفثه عمائر مسلم لها كمالها، أو تعرضت للبلى، فإن سيرك فى أى الطريقين سيمدك بحيوية ونشوة لطيفة يتعاليان مع علو النهار ويناقضان ما بقى فى نفسك من جو القبور التى تجلت لك تحت أضواء الفجر عند جامع عمرو.. أو من صرامة الجد والاحتشام التى استمد منها جامع ابن طولون مفاهيمه الأساسية. وتكفيك نظرة إلى أى خريطة لآثار العصور الوسطى فى القاهرة لتعرف كيف تتبع هذين الطريقين فهما يتحاذيان أو يكاد، ويتجهان إلى الشمال فيكون النيل على يسارك والقلعة وتلالها الجرداء عن يمينك، وبدايتهما واحدة، فأنت تغادر جامع ابن طولون المستعلى

فوق رابيته، فإذا خرجت من بابه انعطفت إلى اليمين حتى تبلغ شارع الصليبة الممتد شرقًا وغربًا، هابطا من الميدان الكبير تحت القلعة إلى أن يبلغ ميدان السيدة زينب ثم يواصل امتداده المستحدث حتى النيل.

وشارع الصليبة شارع جدير بأن تعود إليه بالليل. ترى فيه «سبيلًا» من طراز تركى، وحمامًا عتيقًا أسدل على بابه - كستارة - بشكير حمام يستعمل كإزار، وجامعًا له قبتان حيث يرقد اثنان متصدقان من رجال المماليك، والأفضل أن تكون هذه الجولة الليلية آخر شىء تفعله قبل أن تأوى إلى فراشك، وأن تكون بسيارة أجرة تسير بك على مهل، ولكننا الآن بالنهار، فأنت إذا تابعت شارع الصليبة فى صعوده إلى القلعة بلغت مفترق طرق، ورأيت مشربًا للشاى - شتان بينه وبين أمثاله فى أوروبا رغم وحدة الاسم. قد تخير مكانه قبالة «سبيل» انطلق فيه فن العمارة التركى على هواه، حتى لتظن لحظة أنك أمام منظر فى أواسط آسيا لا فى إفريقية، وللسبيل قبة جانبية يعلوها هلال، وخمسة اضلاع بارزة

النقوش وفق الذوق التركى، وشبابيك حواجزها المعدنيه مصنفرة بدقة وتداخل بارع. بجانب السبيل دكان يبيع البصل، يتعهده شيخ يعتم بطاقية بيضاء. إلى جوارى فى مشرب الشاى رجل لفه الذبول يحتسى قدحًا من القرفة باللبن.

سأعيد لك وصف جولتى محددًا زمن كل رحلة، نفعًا للقراء جاعلاً قيامى بها فى يوم معتاد من أيام شهر مايو، والسبيل هو من معالم جولتنا فمن عنده يبدأ أول طريق مؤد إلى باب زويلة، يسمى ابتداؤه بشارع السيوفية، ثم يمتد مستقيمًا وإن تغير اسمه أربع مرات، ولا يقاطع إلا شارعًا واحدًا كبيرًا، وهو الشارع الذى كان يسمى من قبل شارع محمد على وأصبح اليوم يسمى بشارع القلعة، فإذا بلغته فجاوزه محاذرًا حركة المرور المشتدة فيه، وتابع سيرك فى نفس الاتجاه فإنه الطريق، بعد اصطدامك الوحيد بالترام والسيارات، ما هو إلا سوق واحد متصل. إننى أمر بذبائح الجاموس وعلى اللحم أختام بنفسجية تتدلى أمام جدران بنيت قبل أول استيراد

للبطاطس - وهو معروض أيضًا أمامى للبيع - من أمريكا للقاهرة، ثم دكاكين صغيرة يشتغل أصحابها قعودًا فى نسج السجاد، ها أنا ذا أرى صدفة أربعة من خف الجمل مقطوعة مطروحة تنتظر من يشتريها، ثم أمر بعد قليل ببرميل ممتلئ بالفلفل الأخضر اللامع فيهيج شوقى إلى أن أصنع لنفسى «سلطة» متبلة، ثم بأكوام من الطماطم، حباتها كبيرة. شتان بينها وبين طماطم أوروبا التى لا تزيد فى الحجم عن كرة البلياردو - ولكنها تشكلت باعتساف كأجساد الفلاحين فى لوحات المصور بروجل، ثم إذا بصبى يمرق من دكان يبيع العقود الذهبية ملوحًا بحزمات خضراء وهو ينادى بصوت عال «نعناع. نعناع» كم هى عسيرة هذه الكلمة على نطقى، ولكن ها هو عطر جديد يختلط ببقية العطور التى تملأ خياشيمى، ثم أمر بجدار تتدلى منه سلاسل من الأحذية والشباشب والصنادل، ثم ها هى امرأة متشحة بالسواد تبيع مسحوقًا اسمه «الدقة» وهى اخلاط لا حد لها من حبوب متنوعة، شتان بينها وبين الفلفل، إنها لا تهيج شوقى إلى دخول المطبخ. ثم أمر بدكان مشيد حديثًا بالأسمنت

المسلح، فهو دميم فى هذا المكان، تعالت على جوانبه كالجدران صفوف من علب مسحوق للصابون له شهرته أتريث من جديد حين يتسع الطريق قليلاً ويستطيل، أدخل مقهى أمامها سقيفة، بلدية هى ولكنها مريحة، عليها لافتة تقول «قهوة محمد ناصف وأولاده» وأشرب فنجانًا من قهوة ناصف التركية «سادة» أى خالصة بغير سكر. على حين يمر أمامى حمار يجر عربة محملة بالقدور الكبيرة، حشرت فى أفواهها سدادات مكورة من الورق، هى قدور الفول المدمس، إنه الطعام المفضل الذى يلتزمه المصريون لفطورهم، يخلط بالزيت ويتبل. ادفع ثمن قهوتى ما يعادل خمسة بنسات - ثم أمضى فأمر على «قصارى» الأطفال من قبل أن أدخل إلى القسم الاخير من الطريق. إنه سوق مسقوف «وكلمة بازار الشائعة فى الهند غير مستخدمة فى مصر». وهذا السوق أمتع بكثير من سوق خان الخليلى ذائع الصيت، فخ السائحين من قديم. فهذا السوق المسقوف هو المكان الوحيد الذى يرسم لك أقرب صورة إلى الصدق باقية إلى اليوم من حياة الناس فى عهد المماليك.. أبواب ضخمة - متروكة

الآن مفتوحة دائمًا - رشقت فيها كرات من حديد، وكان التجار يغلقونها بالضبة والمفتاح إذا ثارت ثائرة المماليك، هنا تستطيع أن تشترى بضاعة أصيلة تحمل طابع الشرق وتذكرك به، كلها من أجل الدواب، فهذا السوق متخصص لصناعة اطقم الخيل والحمير، والسرج وغطاء السرج والعذار المنسدل حول رأس الحصان من خيوط صوفية، وهى أشياء تقصد أيضًا إلى الزينة وإن بقى لها نفعها وثمنها معتدل، ثم إذا بهذا السوق الذى يتسلل إليه - كأنما من مصفاة - ضوء شاحب، ينتهى فجأة عند باب زويلة. هنا أنظر إلى ساعتى، إن مشوارى من جامع ابن طولون - مع حساب تريثى لشرب الشاى عند السبيل ثم لشرب القهوة فيما بعد عند محمد ناصف وأولاده - قد استغرق من وقتى ساعة كاملة، لا تزيد ولا تنقص.

أما الطريق الثانى فهو يتساوى مع الأول فى المتعة، وإن كان أطول وأكثر تعرجًا، فلتأخذ شارع السيوفية طريقك، ثم انعطف فى أول شارع يتجه بك يمينا إلى القلعة فتجد جامعين كبيرين - أحدهما جامع السلطان حسن الذى سنزوره فيما بعد - يحيطان بالطريق وهما

على حافة وسعاية صغيرة، فلا تعرج عليها واقطع شارع القلعة الذى لا يخلو من دمامة، ثم ادخل شارع سوق السلاح وهو شارع مزدحم ذو أبنية متداعية تريد أن تنقض، حتى إذا بلغت نهايته اتجه يسارًا إلى شارع التبانة الذى يمر بجامع المارداني[1].. ثم يتجه غربًا فيحيط بالدرب الأحمر، وهنا تتكرر المساجد والمدارس العتيقة وأنغام الموسيقى الشرقية والدكاكين والمشارب مكونة الجو الأصيل الذى عرفناه. وإذا بك فجأة تجد باب زويلة شامخًا على يمينك غير مواجه لك.

---

(١) بنى جامع المارداني فى سنة ١٣٣٩ وهو يمثل خير تمثيل قدرة المزج فى الفن العربى الإسلامى، فأعمدته من كل شكل وحجم.. فمنها الحرابيتية الحمراء المأخوذة من المعابد الفرعونية، ومنها اليونانية الرومانية ومنها المسيحية القبطية. وتيجانها محلاة بزهر اللوتس أو بالأزهار ذات الطرار الكورنثى بل إن بعضها وضع مقلوبا رأسا على عقب. ولكن الطريقة التى وضعت بها تضفى على الجميع وحدة تدعو إلى الدهشة مع أناقة تؤثر فى النفوس. وهذه القدرة على مزج العناصر المتباينة من طراز جديد واحد هى إحدى السمات الواضحة فى الفن الإسلامى العربى. كما أنا نرى فى المشربية التى تفصل بين رواق القبلة عن صحن الجامع المحاط بالأعمدة المقنطرة مثالاً رائعًا فى أعمال الخشب فى القرن الرابع عشر الميلادى وإن تجد أكثر. وقد كان المارداني سافيا للحاكم المملوكى الكثير الذرية الناصر محمد بن قلاوون وزوج احدى بناته، ثم صار حاكما على حلب حيث وافته منيته.

وهكذا تجدنى دائم السعى إلى باب زويلة كأنما كانت هذه البوابة هى محط الأنظار، وإنها لكذلك، فهى المدخل إلى القاهرة الأصيلة.

وكما أن لندن الأصيلة عبارة عن نواة مسورة فى وسط سوق أقيم حولها، فكذلك القاهرة، اتخذت اسمها وطابعها من قطعة مربعة من الأرض لا يزيد ضلعها عن ألف خطوة. هذه المدينة الداخلية التى بنيت أصلاً لتكون مقرًّا لشئون الحكم والدين، لا للإسكان والمعيشة، هى مدينة القاهرة. وهذه المساحة يحدها شمالاً الجزء الشمالى من سورها الأصلى، وشرقًا سور صلاح الدين الذى أقيم فى فترة تالية، وجنوبًا الدرب الاحمر وامتداده تحت الربع، وغربًا مجرى الخليج القديم.

واستمرت القاهرة على شكلها الأصيل مدة قرنين. أما أصل بنائها فمعروف لنا تمامًا.. فهو اليوم الخامس من شهر مايو سنة ٩٦٩ وهى الليلة التالية لاستيلاء جوهر على مدينتى عمرو وابن طولون باسم مولاه المعز لدين الله. أما جوهر هذا فرقيق مسلم من أصل أوروبى،

ومولاه هو رابع من تولى الحكم من أسرة عربية تونسية طالبت بالخلافة لانتسابها إلى السيدة فاطمة بنت النبى[1] التى تزوجت من على ابن عم محمد وأشد أصحابه تحمسًا للدين. وانبثقت فرقة من الإسلام - وهى الشيعة - تؤمن بأن الإمامة وقف على سلالة على من فاطمة. ويتبع مذهب الشيعة حاليًا نصف سكان العراق تقريبًا وكل سكان ايران بينما تخلو منه مصر فهى تتبع المذهب السنى، فى حين كان مذهب الشيعة هو الأساس فى إنشاء عاصمة البلاد التى نجتاز عتبتها الآن من باب زويلة، ودليل على ذلك أن باب النصر الموجود فى الضلع الشمالى من هذا المربع الفاطمى لا نزال نقرأ ما نقش عليه بالخط الكوفى «لا إله إلا الله، محمد رسول الله» وهو ما يدين به المسلمون جميعًا، مضافًا إليه «على وصى الله».

أما كيف بنى جوهر مدينة القاهرة.. ففى ذلك قصة طريفة. فقد جمع الحشود من العمال بمعاولهم ورصهم على أضلاع المربع الذى حدده على الأرض بواسطة قوائم

(١) لقد توفى كل أولاد النبى الذكور قبل البلوغ.

من الخشب، وأوصل أعلى هذه القوائم بحبال مدلى منها أجراس، ووقف المنجمون المغربيون على استعداد يتفحصون أدواتهم وطوالعهم الفلكية حتى إذا اطمأنوا إلى دخول الوقت المبشر بالخير، حركوا الحبال لتمر عبرها الحركة - كتليفون بدائى - فتدق الاجراس إيذانًا بالعمل، ولكن الذى حصل هو أن غرابًا وقف على الحبل وسبق المنجمين فى هزه وإعطاء الإشارة، فانهالت الفئوس والمعاول من آلاف العمال تحفر الأرض. ولم يكن هناك مجال لمنع ذلك، فاكتفى المنجمون بأن يحسبوا الكوكب صاحب الطالع وقت الخبطة العشواء فوجدوه المريخ. ذلك الكوكب الأحمر اللون واسمه «القاهر» فأطلقوه على المدينة متحدين بذلك النذر التى يحملها معه وبذلك سميت المدينة «القاهرة» واجتازت النذر بأمان.

ولأفراد أسرة المعز صفاتهم المميزة الفريدة، فهم من ناحية من أصل عربى لا تركى، ومن ناحية أخرى كانوا يهتمون بالفن كاهتمامهم بالعلم، ثم إنهم بحكم شيعتهم قد انفصلوا عن بقية العالم الإسلامى. فظهر فى الفن اتجاه حسى لم يظهر فى العصور العربية الأخرى، اللهم

إلا فى إيران الشيعية، وبدلاً من أن نرى الزخرفة العربية الجافة، نجد منقوشًا على أوانيهم الخزفية صورًا لعازفى العود، تتدلى من فوقهم عناقيد العنب، وتظهر لهم عيون واسعة وعمائم كبيرة، كما نجد رسومًا لحيوانات أيضًا، ويشهد على ذلك مجموعة رائعة من الخزف فى المتحف الإسلامى.

ويتميز الفاطميون أيضًا بالسرعة والهمة فى الإنشاءات، وخير دليل على ذلك ما نراه إذا ما اتجهنا شمالاً إلى منتصف المربع، ففى السنة التالية لتأسيس المدينة وضع جوهر أساس مسجد وجامعة الازهر فى ٣ ابريل فى الجزء الشرقى من العاصمة الفاطمية، ولم تمر سنتان حتى كمل البناء واستقبل طالبى العلم فى سنة ٩٧٢.

ولا يزال لهذا الجزء من القاهرة - الذى كان أصلاً المدينة الفاطمية - سحره وجماله بالرغم مما شوه هذا الجمال مما استحدث بداخلها وعلى أطرافها من مبان تختلف عن إنشاءات العصر المملوكى ذات الحدائق

الداخلية - وهى مبان مكونة من شقق قد خلت من كل جمال. وطالما شكا النقاد من أن المصريين لم يبقوا على كثير من قديمهم، ومنهم ستانلى لين بول حيث كتب منذ ٦٠ عامًا إن «المصلحة التى تعنى بتخطيط الشوارع إنما قامت بمهمتها بأفق ضيق من الفكر فى خدمة المدينة» ولكننى أقول إن كل مدينة - بله العاصمة - لا يمكن أن تظل على حال واحدة مثل مدينة محنطة، فالناشئة من الأطفال يحتاجون لمدارس يطلبون فيها العلم فكيف تنشأ لهم مبانيها بالسرعة اللازمة بدون الأسمنت وأسياخ الحديد؟ وعلى كل حال فلا يزال هناك قدر كاف من الآثار يعطى مجالاً لتصور ما كان عليه الحال فى الماضى.

إذن فلنأخذ الآن الطريق الذى يقودنا من باب زويلة فى الجنوب إلى باب النصر فى الشمال، وخير رفيق لنا فى هذه الرحلة هو كتاب مسز ديفونشير المسمى «جولات فى القاهرة» فهى ترشدنا فيه - كأحسن دليل - فى لغة سهلة صريحة، وعن علم خال من الحذلقة إلى ما احتجب من آثار الماضى فى أماكنها غير الجلية، وهى قادرة على كشف نفائس كثيرة اضطررنا إلى اغفالها فى هذا الفصل

من الكتاب. ولنتركها مع من عندهم فسحة من الوقت تطول إلى سبعة أيام أو أكثر يقضونها فى القاهرة مع كتابها ونعود فنتقدم فى طريقنا ونترك مستشفى قلاوون والآثار البديعة الأخرى التى خلفتها لنا عصور المماليك ونخطو فى شارع بين القصرين الذى يصل باب زويلة بباب النصر حيث نكافأ فى نهاية مسيرتنا المضنية فى الزحام بجامع ثالث كبير هو جامع الحاكم الواقع تحت ظلال الأسوار العظيمة مباشرة..

وهنا يمكن توجيه بعض اللوم إلى القائمين على رعاية التراث الإسلامى، فجامع الحاكم بأمر الله جامع عظيم سمى أولاً بالجامع الجديد وبالجامع الأبهى ولكنه يقف الآن فى الناحية الداخلية من المدخل الشمالى للمدينة الفاطمية وقد أخذ التعب منه كل مأخذ وغطاه التراب. والأسوار تغطى الجامع وهى حماه، فلكى نشاهده بوضوح علينا أن نتخذ لنا مكاناً فوق أحد برجى باب النصر. واعتقد أنه لو سئل أحد المعجبين بالعرب عما انجزوه لأشار أول ما يشير على الأقل إلى هذه الأطلال فى

القاهرة. صحيح أن فى القاهرة جوامع أكبر حجمًا ولكنه يتميز عنها أنه أقيم لحاكم عربى الأرومة، ومع ذلك فقد أهمل ثم أصيب بحريق كبير فى مستهل هذا القرن بعد معاملة قاسية دامت قرونًا، فى حين كانت الترميمات تافهة، فسقط كثير من الجص المنقوش عليه بالخط الكوفى، ومع هذا فله مئذنتان مديدتان واسعتان معقدتان ظاهرتان فوق أبراج مربعة متراجعة، كما انتشر البلى فى المجموعة الكبيرة من الممرات المبنية بالآجر تحتهما، وكذلك احتلت مدرسة غير ذات أهمية ركنًا من أركانه.

وقد قدمت اقتراحًا لأحد المواطنين العرب بضرورة العناية بهذا الجامع بدلاً من إهماله خصوصًا وأنه يقع فى مدينة ينادى بها قلبًا للعروبة فأجابنى: «ربما كان الكره الذى لا يزال يكنه المصريون للحاكم بأمر الله هو السبب فى إهمال جامعه».

والحاكم - حفيد المعز - كان أشبه بالامبراطور كاليجولا الرومانى. إنه كان مدللاً شديد الأنانية تنتابه نوبات من التعقل والجنون، ومن التسامح والتعصب، كما

كـان مصدرًا لكثـير من المضايقـات للناس فى التـافه من الأمور وفى خطيرها، وظل كذلك حتى لقى مصرعـه. قتله شخص مجهول فى الصحراء اثناء تجواله فيها وهـو راكب حمـاره. وكان من ضحـاياه الأقبـاط فقتـل منهم الكثـير، وبائعو الملوخيـة التى حرمهـا، وهى طعام صمغى القـوام محبوب عند المصريين إلى يومنا هذا، وحرم صنـع أحذيـة النساء منعًا لهن من الخروج من بيوتهن ليـلاً ونهارًا، ومنع الناس من بيع الزبيب، وأمر بحرق الكروم وقطعها، كـما حرم أيضًا اللعب بالشطرنج، حتى الحيوانات لم تسلم من شره فأمر بقتل جميع كلاب القاهرة، الأمـر الذى يجعلنى أنفـر منه. ولكن لابـد أن هذا الـوحش المتألـه كان يملك هالة من المهابة جعلت دروز لبنان يبجلونه إلى يومنا هـذا ويجعلونه رمزًا مجسدًا للفضائل التى تجمعت فيه. ومـع كل فإنى اتردد كثيرًا قبل أن ألـج هذا الجـامع ليـلاً ففيه من الخفافيش البالغ حجمها كحجم الدجاج مـا تنقض وهى طائرة حتى بالنهار داخل البرج المـربع الـذى تسمو منـه المئذنة إلى طرفها المـزخرف ويصـدر عنها عجيـج يطغى على ضوضاء المارة فى الطريق.

وبجامع الحاكم هذا تنتهى سلسلة من الجوامع ذات طابع واحد: طابع العزة الدينية، تمامًا مثل جامعى عمرو وابن طولون، نبعت من هذا الدين الذى ينزع إلى الديمقراطية فى أحد نواحيه. فكل الناس داخل الجامع سواسية لا تفاضل بينهم، يندمج فيهم الخليفة ولو حضر فى فاخر ثيابه ووسط شديد حراسه. وكانت هذه الجوامع تشعر بالروح العسكرية وبالفحولة مثلما كان الشعب يجمع بين شعائر العبادة وحمل السلاح، وأعنى بالشعب هنا المسلمين، فلم تكن وقتذاك جنسية عربية وأخرى تركية، فالكل سواء يقيمون الصلاة صفوفًا خلف إمامهم يسجدون لله كما علمهم النبى العربى.

ولكن فى جامع الحاكم ما يوحى بأن هناك تغييرًا ما. ذلك أننا نعلم أن هذا الخليفة كان مختل العقل طاغية، ونعلم أيضًا أن حراسه الذين خصصت لهم أحياء كاملة فى المدينة صارت لهم سطوة طغت أو كادت على سطوة الشخص الذى كلفوا بحراسته، فكانت هذه الرقة فى عقود الجامع التى توحى بابتداء اضمحلال سطوة الخلفاء

حتى فقدوها كلية، وظهرت الرشاقة إلى حد الأنوثة التى تبتعد عن الروح ذات البأس التى نراها متمثلة بوضوح فى أعمدة جامع ابن طولون أكثر من أى مكان آخر، فهى مؤشرات تدل على أن الإسلام فى عهد الحاكم ابتدأ فى الانكماش والدفاع (انتهت الدولة الفاطمية عندما احتل الصليبيون القاهرة لمدة قصيرة سنة ١١٦٣). ولم تعد الخلافة منذ عصر الحاكم تدل على ما كانت تدل عليه فى القرون الأولى عندما امتطى المسلمون خيولهم مشرقين ومغربين، لا حدود تفصلهم عن الدنيا بأسرها، ثم بدأت الفرقة بينهم، وما كان الخليفة الفاطمى إلا واحدًا من الذين ادعوا حق السلطان لأنفسهم ونافسه فى ذلك صاحبا بغداد والأندلس.

من هنا نترك جامع الحاكم ونستقل سيارة أبرة، وفى طريق العودة. على بعد مئات قليلة من الأمتار وفى شارع بين القصرين الذى اجتزناه من قبل ندع السيارة تقف بنا هنيهة – دون أن يبطل عدادها عن العد – عند الجامع الأقمر، وهو أحسن جوامع الفاطميين حفظًا، وله

واجهة جامدة ضئيلة الزخرفة كعادة الفاطميين. ولا نتلبث عنده إلا قليلاً، ونطلب من السائق أن يتوجه بنا إلى جامع السلطان حسن قبل أن يدركنا الليل، وسيسر حتمًا بمنحة قرش أو قرشين زيادة.

ويبين جامع السلطان حسن ذو الضريح أن المستوى الحضارى للدين - وليست العقيدة نفسها أو تعاليمه - قد ناله بعض التغيير، كما أن المبانى تغيرت فى الشكل والروح، فهذا الجامع لا يقل عن جامع ابن طولون فى إظهار قوة العقيدة حتى أن مدخله الشبيه بالدهليز يذكرنا بالمعابد الفرعونية التى صممت لتدخل الرهبة والخشية فى نفوس المتعبدين ويشبهها أيضًا فى إقامة هذا البناء المتعالى الضخم لأجل ان يضم رفات إنسان ضئيل. ومدخل هذا الدهليز عبارة عن بوابة ضخمة تعلوها طبقات من المقرنصات المحفورة، وفى نهايته نجد صحنًا واسعًا مكشوفًا للسماء التى تبدو بعيدة لأن الصحن محاط بأربعة ايوانات كبار ذات عقود طويلة معتمة حتى ليخال أنه محاط بغابة من الظلال. ويوجد الضريح خلف إيوان

القبلة فى قاعة متسعة ولكنه خال وهو الذى كان مستعـدًّا لاستقبال جثمان السلطان حسن، واحد من حكام القرن الرابع عشر ليس بذى خطر كمثيله توت عنخ أمون فهو كان السابع من ثمانية أولاد خلفهم الناصر محمد المملوك الذى كانت له سطوة وقـوة. ولكن ابنه حسنًـا لم يستطع أن يقيم قاعدة يمسك بها أزمة الحكم بحزم بالرغم مما كان يكنه من عواطف نحو المصريين المسلمين. وكفاه ذكرًا أنه أعطى اسمه لهذه التحفة المعمارية ودليلًا أيضا على حالـة الـدول الإسلاميـة فى أواخر العصـور الوسـطى.. وهـذا الجامع ولو أنه بنى خصيصًا ليضم مقبرة فخمة لمنشئه فهو يضم أيضًا أربعة مـدارس، فعلى كـل جانب من جـوانب الصحن يوجد بـاب يؤدى إلى مدرسـة يدرس فيهـا أحد المذاهب الأربعة المعترف بها فى المـذهب السنى، والفروق بين هذه المذاهب صغيرة جدًّا ولا يمكن أن تقارن بمـا بين مذهبى السنة والشيعـة من اختلاف. ومـع ذلك وبـالرغم من هذه الرعاية كما نراهـا فى هذه المـدارس وفى الميضأة الوسطى المخصصة للطهارة والوضوء فإننا نرى فيه رمزًا للانطواء فالسلطان حسن بالرغم من ميله إلى المصريـين

كان مملوكًا أى غريبًا من طائفة لم تندمج من الشعب سواء كانوا فى عز قوتهم مشيدين أو كانوا فى قلة حيلتهم متقلبين. من هنا نرى أن جامع السلطان حسن قد قطع بنا شوطًا طويلاً بعيدًا من روح عمرو الذى أقام مدينة من الخيام وبنى مسجدًا متواضعًا لجنود ولى عليهم وهم معه سواسية. عمرو هذا الذى قدم من بلاد العرب المحمدية حيث كان النبى يرفع ملابسه فى بيت متواضع وحيث شاركت النساء فى غزوات الحروب وندوات الأدب، بينما نشأ السلطان حسن على تقاليد دعت إلى حجزهن فى «الحريم». ففى جامعه تجلت الملوكية بأوضح معانيها كما تجلت فى وندسور فى انجلترا.

أما آخر مرحلة فى رحلة اليوم فهى زيارة القرافة شرقى المدينة، فهنا شغل المماليك المتأخرون بقبورهم وأقاموها خالية من المدارس والميضآت، إنما هيئت للموت فقط.

وكثير منها جميل وكثير أيضًا متداع، وتعددت القباب حتى صارت رمزًا لمدينة الموت. وقد ابتدئ فى زرع

الأشجار فى الأراضى المحيطة ولكن التراب يملأ ما بين القبور. هيا نختار واحدًا منها. إذن فلنزر ضريح قايتباى فعسى أن يكون مفتوحًا. وقايتباى واحد من المماليك ذوى النشاط عاش فى العصر السابق مباشرة للفتح التركى العثمانى. ويمتاز ضريحه بوجود زجاج ملون مرتفع فوق الجدران يسمح للأضواء أن تمر إلى الداخل.. أضواء ليست من صنع مصر.

ونكتفى بهذا القدر من التراب ومن ذكر الموت،فالتراب قد زكم الأنوف، وشعر الإنسان أن الدنيا قد انقلبت ترابية كلها. فلنختم رحلة يومنا هذا فى فلوكة على النيل حتى يغسل النسيم الشمالى كل كآبة أصابتنا استعدادًا لسهرة المساء. وفى الفلوكة - عندما تقترب الشمس للمغيب - نرى مسجدًا جديدًا بالقرب من كبرى يصل بين الروضة والجيزة، أطلق عليه اسم صلاح الدين تسطع عليه أضواء تجعله يتلألأ ناطقًا بإحياء العمائر التى تمتد إلى السماء على الطراز القوطى.